د. خالد فهمي
كلية الآداب
جامعة المنوفية

تأملات في سورة القدر



﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ
٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ٥﴾
(القدر:١–٥).

إن القول بأن سلام العالم واحد من مقاصد الكتاب العزيز العليا يمثل حقيقة بالغة السطوع، لا تخطئها العين.
إن مراجعة الكتاب العزيز كاشفة عن هيمنة إرادة تحقيق سلام العالم على نصوصه، وهو ما تكشف عنه كثافة ورود اللفظة المحورية «السلام» في آياته الكثيرة المتوزعة على قسمي القرآن الكريم؛ المكي والمدني معا.
إن السلام خلوص من الآفات جميعا في ذات بدن الإنسان ونفسه وعقله ودينه، وهو التخلص من المكروه بكل أنواعه وصنوفه، وهو الصلح وقتل الشر في الوجود، واستتباب الخير في العالم.

يقول تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ (يونس:٢٥). يعلق الماوردي في تفسيره «النكت والعيون» (تحقيق خضر محمد خضر، دار الصفوة، القاهرة، ووزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، سنة ١٩٩٣م؛ ٢/٢١٠)؛ «يعنى: الجنة. وفي تسميتها دار السلام وجهان: «أحدهما» لأن السلام هو الله، والجنة داره؛ «الثاني» لأنها دار السلامة من كل آفة». وهذه آية بالغة الوضوح عن مقصد الكتاب العزيز في إرادة تحقيق سلام العالم.
وسورة القدر نص جليل في بيان الطريق إلى سلام العالم!

معجم سورة القدر

تتأسس هذه السورة الجليلة على بعض الكلمات المفاتيح التي تشكل بنيتها الدلالية الأساسية، ويدور في فلكها بعض آخر من الكلمات التي تعين على هذا التأسيس.

- ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ الفعل أنزل فعل متعد، يحمل دلالة العلو، ودلالة الاستيعاب والاستغراق، إذ يقول أهل اللغة إن الإنزال: «حط الشيء من العلو»، كما جاء في نزهة الأعين النواظر، لابن الجوزي (تحقيق محمد عبدالكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٧م؛ ص:١٢٧).
والكلمة محتملة لمعاني القول، والبسط والإنزال نفسه، وهو مما يدور في فلك هذه المعاني معاني الضيافة؛ إذ النزيل ضيف، وهو ما يحمل على العناية بإكرام الكتاب العزيز عموما؛ لأنه ضيف، وللضيف الإكرام حقا وواجبا!

- ﴿ٱلۡقَدۡرِ﴾ كلمة السورة، وعنوانها، ومفتاح أساسي لفهمها، وهي في هذا السياق مثال عبقري للاستجابة لمفهوم تزاحم المعاني وتقديره في الكتاب العزيز، فالقدر بتحكيم الاشتقاق تعني الشرف والمنزلة والمكانة الرفيعة السامية؛ وتعني التضييق، وسد المنافذ؛ وتعني التقدير وتوزيع الأجور، وهي جميعا دلالات مقصودة هنا؛ ذلك أن ليلة القدر ليلة ذات شرف ومنزلة في نفسها، والشرف مواهب توهب، وهي شرف لمن تعلق بها وقدرها، ترقى بمنزلته ومكانته. وليلة القدر ليلة تضيق فيها منافذ الشر، وتُغَلُّ المردة، الشياطين، وتفيض فيها الرحمة الربانية على الخلق، ليلة القدر ليلة تقدر فيها أقدار الخلق، وأرزاقهم، ومنازلهم.

- ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ من القواعد الكلية في التفسير قوله إن كل «ما أدراه» في القرآن فقد أدراه. والدراية معرفة علم وإخبار، وهو دال على تحقق اليقين، وهو سر استعماله هنا، ليتقرر في الإجابة بعد حصول اليقين من صاحب التنزيل الذي يخبر ويعلم.

- ﴿خَيۡرٞ﴾ اسم تفضيل متحول من أفعل إلى فعل بعد سقوط همزته. وهو اسم جامع دال على كل طيب ممدوح، مرغوب فيه، وهو الكرم. وهو في الكتاب العزيز متفجر الدلالات مكتنز المعاني، فهو الإيمان، والإسلام، والمال، والعافية، والأجر، والفضل، والطعام، والظفر، والنفع، والصلاح، والقوة، والقدرة، والإصلاح، والصيانة، والحسن، وكل ما هو ضد الشر، وهذه المعاني التي ذكرها علماء الوجوه والنظائر، كما في نزهة الأعين النواظر (ص:٢٨٥-٢٨٨) مرادة جميعا هنا.
وهو ما يعني أن الإخبار عن ليلة القدر في مواجهة: «ألف شهر» يتضمن كل هذه المعاني التي ترقى بمكانتها ومنزلتها.

- ﴿أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ تعني على ظاهر أمرها: ألف شهر، والأعداد في غير باب الأحكام تطلق يراد بها التكثير، والقصد إلى «ألف» من الأعداد لأنه أعلى ما كانوا يتصورونه منها. ومن ثم يكون أمر ليلة القدر على الظاهر خير من عمر الإنسان كله وإن طال فتجاوز الثمانين عاما، أو هي خير من الزمان كله، لأن ألف الشهر، تعبير عددي يقصد بيان الكثرة، واستعظامها. واستعمل «الشهر» لمناسبة شهر رمضان الذي فيه الليلة المباركة، وفرارا من «السنة» وما فيها من معاني الشدة والجدب، وتحقيقا لانسجام الفاصلة العزيزة في السورة الكريمة.

- ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ كلمات هذه الآية جميعا تفيض بالنور، لقد كان اختيار الفعل تنزل ببنيته الصرفية الدالة على الاستمرار، وعدم التوقف والكثافة دالا جدا في هذا السياق.
والفعل مضارع، ومشدّد العين، ولازم، وهو ما يعني الاستمرار والكثرة، والكثافة ومحبة النزول

ممن يتنزل.
والملائكة جمع يدعم ما في التنزل من كثافة وازدياد، وهم جنس مطيع، محب لما يأتي من الأعمال، رمز للنور والرحمة معا.

● ﴿وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾: الروح هي سر الوجود والحياة، ومادة حفظه، وهي الرحمة. وهي في هذا الموضع محتملة هذه المعاني جميعا، وهي كذلك في هذا الموضع دالة على جبريل، وفي ذلك تشريف لعالم الإنسانية المؤمنة، وتحقيق لمنازل المؤمنين ممن لم يروا أو يشهدوا زمان التنزيل، وإثبات لرسومهم.
ولعل في استعمال ضمير «ها» في ﴿فيهَا﴾ من دون: «هن» مع جوازها دفعا لتوهم تصور دعم أنوثة الملائكة، نفي احتمال كون الملائكة بناتا وإناثا.

● ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِم﴾ الإذن أمر. والإذن: السماح والموافقة، وهذه المعاني لازمة جميعا هنا، فالإذن أمر، لأنه لم يكن للملائكة أن ينزلوا من دون أمر منه سبحانه، والإذن: السماح، بحكم الفعل اللازم.

● ﴿مِّن كُلِّ أَمۡرٖ﴾ الأمر في الآية الرزق والأجل، وقد قرئت: ﴿امرئ﴾ وهذه القراءة تثبت أن الملائكة وجبريل يسلمون على كل امرئ مسلم، كما تأولها بعض التابعين.

● ﴿سَلَٰمٌ﴾ هذه هي الكلمة الثانية المفتاح في هذه السورة الجليلة المباركة، والسلام مادة خام، وتكثيف عميق لمعاني البراءة من الشرور؛ وتجسد معاني الخير والبركة، وللخلوص من الآفات والمعايب والنقص والأمراض. وبهذا تكون ليلة القدر هي التجسد الحي لطريق سلام العالم بالمعاني المادية والروحية جميعا.

تراكيب السورة

يقع تحليل التراكيب في مرحلة تالية لتحليل المعجم، فيدعمه، ويحسم مشكلات الاحتمالات فيه، ويزيد من عطائه.

● ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ أكد الكتاب العزيز قضية الإنزال؛ لجلالها وليقطع مادة الشك حول دعوى تأليف القرآن الكريم، وليقرر علويته وتساميه، وانقطاعه عن الصناعة البشرية.

وجاء اسم إن «نا» وخبرها جملة «أنزلناه»، مشمولين بدلالة الجمعية تعظيما للمنزل من جانب، إذ ضمير المتكلمين من جهة المفرد تعظيم، وللدلالة على استجابة الملائكة لأمر الله تعالى بإنزال الذكر الحكيم. وهو بعض من خصائص حديث الله عن نفسه في الكتاب العزيز.
والهاء في جملة الخبر مفعول به يفسره القرآن الكريم، واستعمل ضميرا لذيوع أمر الكتاب العزيز وانتشاره والعلم به. ومجيء الخبر جملة فعلها ماض توكيدا ودلالة على تمدد الإنزال وتنوعه.

● ﴿فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ وشبه الجملة من الجار والمجرور المعرفة بالإضافة متعلق بالفعل ينير زمان التنزل إن إجمالا أو ابتداء تنزله منجما مفرقا على مدة البعثة الشريفة.
إن اختيار الليل ظرفا للتنزل الكريم رحمة؛ إذ الليل ألطف من النهار، والوحي ثقيل الوطأة، والليل أرجى لانفتاح النفس، واستجابة الضمير، وقد استقر في التاريخ الاجتماعي أن الأنهر للمعاش، والليالي مخازن للتزكية!

● ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ جملة مركبة استفهامية، والاستفهام فيها للتنبيه لاستقبال الجواب اليقيني؛ لأن الدراية معرفة متقنة!

وهو نمط من الاستفهامات دال على تعظيم المسؤول عنه، ورفعته، وإعلاء شأنه.

● ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ هذه جملة جواب مثالية، ذكر فيها المبتدأ المعرفة ليلة القدر مع تقدمه في السؤال تشريفا للمذكور، ولذة بتكرره، ودفعا لتوهم الخلط في تقديره إن جاء مضمرا!

● ﴿خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ خبر منعوت بشبه الجملة تخصيصا وبيانا، والجملة الأسمية جاءت خالية من قرائن الزمان لينفتح حكمها على امتداد الزمان، وليبقى أبدا، وهو نوع من مثيرات الأمل والتفاؤل واستمرار التشريف.

● ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ جملة جيدة طويلة صالحة لأن تكون خبرا بعد خبر، وفصلت عن سابقتها للارتقاء بقضية تنزل الملائكة، والفعل تنزل مضارع لازم، والملائكة فاعله.

و«الروح فيها» محتملة للعطف على الملائكة فتكون من جملة المتنزلين، وفيها شبه جملة متعلقة بالفعل، متممة لمعناه، ومحتملة للاستئناف، فتكون الروح مبتدأ وفيها خبره، وهي مرادان ليحققا استيعابا لمعان مجتمعة، تقرر تنزل الروح، وتقرر تعظيم خبر كونه في جملة الملائكة تشريفا لليلة، وللذين يحيون الليلة من المؤمنين على الزمان.

● ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ﴾ شبه جملة من جار هو الباء، ومجرور هو إذن متعلق بالفعل «تنزل»، أو شبه جملة متعلق بمحذوف حال من فاعل الفعل تنزل، وهما معنيان مرادان؛ أحدهما يتمم معنى الفعل، والآخر يوحي بأن التنزل مؤقت مرتهن بالليلة المباركة، ثم ينقطع!

● ﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾ سلام خبر مقدم لبيان منزلته، وهي مبتدأ مؤخر يفسره ليلة القدر. إن اختيار الخبر مصدرا نكرة مع العلم بأن الخبر هو عن المبتدأ في المعنى، أو هو هو على حد تعبير الزجاجي في جملة تفتح الباب لتفهم أن الليلة المباركة سالمة، ومسلمة، وسلامة، وتسليم، ونعيم للمؤمنين.

● ﴿حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ شبه جملة متعلق بسلام بيانا لمدة استمراره.

إن هذا التعالق العجيب بين جزئيات تراكيب هذه السورة الجليلة، كاشف عن أن سلام العالم متحقق بالارتباط بما تنزل في هذه الليلة، وبما قرره في وجود الناس!

عطاءات السورة

لقد نهض المعجم والنحو ببيان الكثير من المعاني المفردة في السورة الكريمة القصيرة، وثمة قضايا كلية تفيض بعطائها السورة، هي كما يلي:

أولا- تلح الآيات الكريمة على أن الارتباط بالمنهج المتسامي المتعالي هو الطريق لسلام العالم، وهو التعالي المستفاد من الدلالة المعجمية والصرفية والنحوية لفعل الإنزال المتعدي.

وظهرت قضية الإنزال متعاظمة عن الإسناد الفعلي للضمير التعظيمي، المؤكد؛ ليتقرر في الوجدان المسلم عظمة ما كان في هذه الليلة العظيمة الشريفة.

ثانيا- كشف بناء السورة الكريمة عن تقدير عجيب لليلة القدر، وحياطة أمرها بالبيان المستفيض الذي لا يعرف حذفا على مستوى البناء النحوي، منعا من مخاطر التقدير للمحذوف، وهو ما ظهر من التكرار، ومن الإجابات المثالية التي سيقت على الاستفهامات المصممة بأفعال اليقين.

ثالثا- كشف بناء السورة كذلك عن نوع تحقيق للتلذذ بذكر ليلة القدر، فقد تكرر ذكرها ثلاث مرات، مع ما في ذلك من تنبيه إلى فضيلة الليل بما هو مصنع التزكية الضابطة لحركة العمران وطلب المعاش في النهار!

رابعا- حرصت السورة على دعم حقائق الاعتقاد في بنائها النحوي عندما استعملت الضمير «ها» بديلا عن الضمير «هن» العائد على الملائكة منعا من الاقتراب من شبهة تصور الملائكة بناتا أو إناثا.

ومبدأ دفع التوهم مبدأ علوي حاكم في البناء اللغوي للكتاب العزيز، معجميا ونحويا.

خامسا- ظهر التنوع الإعرابي لجمل السورة الكريمة، وهو طريق عبقري لاستيعاب تزاحم المعاني الواردة على السورة.

سادسا- كشف الدوران حول الكلمتين المفتاحين: (القدر وسلام) عن نوع من الترابط الحميم بينهما، بحيث يمكننا أن نقرر أن بينهما ترادفا سياقيا، فليلة القدر هي مصنع السلام العام، والسلامة من الآفات، وصفاء النفس، وارتياح الروح، وأمن العالم.

إن هذه السورة البديعة تكشف عن الخير المتكرر المستمر الذي يرد الحياة إلى المنهج الضابط لحركتها في الوجود الإنساني.

القرآن لا يزال قائما، والملائكة الذين نزلوا به زمان البعثة ينزلون ليشهدوا الذين يرتبطون به من المعاصرين، ويحبونهم.

والله من بعد ذلك كله يعد، ووعده الصدق، بالسلام لأولئك الذين يحيون في ظل منهجه، ويسعون إلى استعادة النور الذي عمر الوجود مع فجر بعثة النبي الخاتم ﷺ.